

الحدثا ومظاهر انفصالها عن القيمة في الأنموذج الاقتصادي والسياسي والفني

Modernity and Manifestations of Separation From the Value In the Economic, Political and Artistic Model

الباحث بن حجة عبد الحليم*

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة حسية بن بوعلي- الشلف، الجزائر

تاريخ النشر: 31 جانفي 2019

تاريخ القبول: 2018/01/23

تاريخ الإرسال: 2018/08/29

ملخص:

يحلل هذا المقال سؤال الحدثا الغربية في صورتها الاختزالية المنفصلة عن القيمة، بوصفها قطيعة فكرية مع تقاليد الماضي أسست للجديد عبر فعل الانفصال، ومن ثم محاولة توضيح نتائج هذا الانفصال وما عكسه من أزمت أخلاقية - كلمات مفتاحية: الحدثا، القيمة، انفصال، الاقتصاد، السياسة، فن.

Abstract :

This article analyzes the question of Western modernity in its reductive image separated from the value as an intellectual repute with the traditions of the past, Found for the new through the act of separation, and then attempt to clarify the results of this chapter and its reflection of moral crises.

Key words : Modernity, values, Separation, Economy, Politics, art

*أستاذ محاضر (ب)، benhadjebahalim@gmail.com . كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة

حسية بن بوعلي- الشلف، مخبر الأبعاد القيمة للتحويلات الفكرية والسياسية في الجزائر، جامعة محمد بن احمد وهران2.

مقدمة

إذا كانت الحداثة في أحد معانها تشير إلى التحديث والتجديد، فإنها تحيل بهذه المعاني إلى مظاهر التحول من أنماط تقليدية إلى لبوس مخالفة جديدة، حتى وإن جاءت بطرق انفصالية ثورية متمردة على كل ما هو ثابت ومقدس ومعتاد، تاركة وراءها تمزقات ثقافية واجتماعية ومعرفية وأخلاقية.

فالنزوع إلى التحديث باعتباره انتقال من بنية إلى بنية أخرى لا يتم دائما بصورة هادئة سلسة، بل كثيرا ما يحصل بطريقة عنيفة مدمرة مادام هذا الانتقال قائم على فعل القطيعة والتنكر الصريح للموروث الإنساني ومنظوماته التقليدية.

من هنا فالكلام عن الحداثة الغربية هو حديث عن حالة عبور من وضع غير مرغوب فيه إلى وضع جديد يعتقد أنه أفضل، هو حديث عن تحولات قيمية كبرى في جميع جوانب الحضارة الإنسانية الاقتصادية والسياسية والفنية والاجتماعية وغيرها من الجوانب الأخرى، على أساس أن التحديث الغربي لما ظهر جاء كاسحا لمستويات الوجود كافة حتى وإن كان قد مارس فعله هذا على مراحل متعددة وبصورة تدريجية، ولكن من المؤكد أن هذا الفعل منذ لحظة انبثاقه أحدث فواصل وانعطافات متباينة في رؤى وقيم المجتمعات الغربية، تفاعل البعض بها واعتبرها مرحلة تقدم وسعادة قادمة وتشاءم البعض منها واعتبرها بداية لأزمات مقبلة ستظهر تجليتها في ما بعد الحداثة .

1 - في تاريخية الحداثة:

من الصعب أن نقف على الخلفية التاريخية للحداثة بكل مراحلها وتحولاتها الفلسفية والاجتماعية، فنحن لسنا بصدد التأريخ لفكر ما أو عصر من العصور، كما أن هذا العمل لا يمكن الإمام به في سطور ولكننا سنحاول أن نعرض لأهم المحطات الأساسية والخصائص الإبتسمية التي طبعت وشكلت الفكر الفلسفي للحداثة.

ينبغي أن نعلم أولا أن الحداثة الغربية كنمط فكري فلسفي "لم تكن حادثة مباغتة جاءت عرضا بغير تمهيد"¹ ، بل هي مسار تاريخي مر بمراحل ومحطات كبرى.

1 . زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د ط، 1936، ص

- ولعل أولى تلك المراحل مرحلة عصر النهضة: التي شهدت يقظة فكرية وفلسفية حررت الفكر الغربي من الجمود الكنائسي، ودعته إلى مراجعة التراثيين اليوناني والروماني لاستثمارهما والاسترشاد بهما فكانت هذه المرحلة، خطوة أولى لضرب قيم المسيحية وإرساء قيم جديدة شعارها الحرية والمحبة والإعلاء من كرامة الإنسان، وفي ظل هذه الأجواء نشأت فلسفة جديدة تبدي اهتماما واسعا بالحياة الدنيوية وترفض كل وصاية دينية .

وتمثلت المرحلة الثانية في حركة الإصلاح الديني: التي حاول من خلالها رجال الدين رفع الوصاية عن الفرد المؤمن في عباداته، فهو ليس بحاجة في "توبته إلى وساطة راهب أو قديس فلم تعد الناس بحاجة إلى رجال الدين ليتوسطوا بينهم وبين ربهم"²، إن حركة الإصلاح الديني هذه كانت مرحلة حاسمة انتهت بالثورة على الكنيسة والتخلص من سلطتها، مما مهد لقيم الديمقراطية والحرية الفكرية والدينية.

أما المرحلة الثالثة فتمثلت في الثورة العلمية: التي اعتنت بدراسة ظواهر الطبيعة دراسة تجريبية فظهرت أول دفعة حقيقية للعلم في أثر نشر نظرية كوبرنيكوس (1543.1473)، حيث أصبح هاجس العلم السيطرة على الطبيعة والتحكم فيها بدلا من الاقتصاد على معرفتها وفهم الغاية منها، إنه إذا زمن العلم الذي أحدث تغيرا واضحا في نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وتكرست نتيجة هذه الرؤية الجديدة النزعة الواقعية التي تستوعب التطورات الحادثة نفورا من كل ما هو نظامي لاهوتي واعتراضا على الفكر السكولائي عموما والتعليم الأرسطي خصوصا، حيث أصبح اهتمام العلم منصبا على فهم الطبيعة والكشف عن نظامها وقوانينها، ولن يتحقق ذلك طبعاً إلا بتحرير العقل من الأوهام والخرافات وإضفاء الصبغة الرياضية، وإعطاء العناية البالغة للعلم الآلي واختباراته التطبيقية.

وتمثلت المرحلة الرابعة في ما عرف بفلسفة الأنوار: التي كانت بمثابة نظرية عقلية للكون والإنسان، فلا ينبغي أن يقبل شيء ما لم يقاس بمقياس العقل وكأن زمن التسليم الأعى لعالم الغيب تلاشى وانتهت مرحلته لينزل العقل "من عالم الغيب الذي

كان يخلق في سمائه ويخطط في بیدائه، إلى الطبيعة المحسوسة الواقعية التي نلمسها ونراها بالأیدی والأبصار"³، وقد ساهم هذا الوعي الأنواري في إزاحة قيم الفلسفة المدرسية وأصبح من الواجب البحث عن الآلية الصحيحة التي تؤسس بها عقلانيا للعلم والأخلاق والسياسة، وبدلاً من تحديد مهمة الفكر في الفهم والتفسير ينبغي أن نوجه قدرته إلى النقد الشامل للأشياء والظواهر وأن نعزز الإيمان به.

أما المرحلة الخامسة فقد تمثلت في الثورة الصناعية: حيث تنامت وتيرة الإنتاج المادي بصورة رهيبة وزاد تقسيم العمل وأدخلت تغيرات على أدوات وعلاقات الإنتاج وبرز منطق السوق ورأس المال فنتج جراء ذلك عصر الرأسمالية، التي "قام على وجودها التحديث السياسي والفكري" ⁴.

بمقتضى هذه الأحداث الجديدة بدأت علاقات المجتمع الغربي تتجه تدريجياً نحو القيم المادية الكامنة (الثروة، الاستهلاك المادي، تشيؤ مظاهر الحياة)، منسلخة عن أي غائيات إنسانية.

2 - مظاهر انفصال الحداثة عن القيمة:

- وأولى تلك المظاهر صورة الاقتصاد: حتى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر بقي الاقتصاد الغربي في طابعه العام محافظاً على منظومة قيمه الدينية والإنسانية إلى حد كبير، بسبب تغلغل النزعة التقوية الإيمانية وعدم تمركز الرؤية المادية النفعية في النموذج المعرفي الغربي، ولكن مع ذلك لوحظ في هذا القرن (الرابع عشر) بداية استقلال القطاع الاقتصادي عن المجتمع التقليدي وانفصاله عن الاقتصاد التبادلي، وبداية الاقتصاد السلعي النقدي، حيث بدأ ينتشر الاقتصاد العائلي والصناعات المرتبطة به، وهنا بدأ بعض الفلاحين يزرعون المحاصيل بهدف الربح، وبدأ الاهتمام برعي الأغنام لتوريد الوبر اللازم لمصانع الصوف، وتزايد الطلب على المواد الخام للصناعات الجديدة، وتركزت الصناعات في منطقة واحدة، وزاد التخصص في سلعة

3. المرجع نفسه، ص 38.

4. المرجع نفسه، ص 47.

واحدة، واتسم الاقتصاد السلعي بأن الإنتاج فيه يتم من أجل الربح المجرد على حساب الرغبات الإنسانية⁵.

من المؤكد أن اتجاه الاقتصاد من الصورة المحلية البسيطة القائمة على إشباع حاجات الناس الضرورية، إلى الصورة التجارية الربحية استلزم تحديث وسائل الإنتاج فظهرت آليات المكننة والصناعة والتخصص في أعمال معينة وإنتاج سلع محددة، وتراجع العمل اليدوي المرتبط بالإتقان والحفاظ على موروث الحرفة واسم العائلة المرتبط بها، وتحول عالم الشغل إلى عالم الكم والحساب ومسابقة الزمن، وزيادة الإنتاج لتحقيق فائض من القيم المادية فما يحرك الفلاح والصانع والتاجر هذه المرة هو الربح، مما يفرض تجاوز الاعتبارات الدينية والإنسانية التقليدية التي تضيق من حرية الاقتصاد، يقول المفكر المصري < عبد الوهاب المسيري> : "بدأ الاقتصاد الجديد يتملص من نفوذ الكنيسة وبدأت تنحسر تلك الأفكار المسيحية الغائبة الدينية والإنسانية مثل الثمن العادل الذي يرفض آليات السوق والمادة، وتحريم الربا باعتباره عنصرا من عناصر الاستغلال، وتطبيق القوانين المادية المجردة على العلاقات الإنسانية"⁶.

وفق هذا المنحى الحدائي بدأ حجم الاقتصاد يتأسس على النقود لا التبادل المشترك، والوصول على السلعة أصبح الغرض منه تسويقها لجلب الثروة وليس بهدف تحقيق الإشباع الإنساني، فبحلول القرن الخامس عشر يقول المؤرخ الأمريكي <كافين رايلي> : "ظهرت طبقة متوسطة جديدة كاملة من التجار ورجال البنوك، وأصحاب الصناعات الحرفية، تفوق كثيرا من النبلاء غنى (...) ولجأ بعض الأذكىاء إلى إدارة أراضيهم على أساس تجاري، بتحويل الالتزامات الإقطاعية القديمة إلى إيجارات نقدية ثابتة، وتسبيح الأراضي التي اعتاد الفلاحون زراعتها على المشاع، وتحولها لاستخدامهم الشخصي كمراع للأغنام تدريجا أكبر"⁷.

5. عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الأول، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002، ص 208.

6. المرجع نفسه، ص 208.

7. كافين رايلي، الغرب والعالم - تاريخ العالم من خلال موضوعات، تر/ عبد الوهاب المسيري، هدي عبد السميع الحجازي، الجزء الثاني (د،ط)، عالم المعرفة، الكويت، 1986، ص ص 71/70.

إذا فجملة التحولات الحاصلة التي بدأت تعم جوهر الاقتصاد الغربي نزعت عن الناس نسقا من القيم التقليدية في معاملاتهم الاقتصادية وطبعت على نظامهم ورؤيتهم المعرفية علاقات السوق، ولكن مجتمع السوق هذا بدأ يبشر بقدوم نظام جديد يمكن تسميته بالرأسمالية، والحديث عن الرأسمالية من المؤكد أنه فتح لعهد المال والربح والثروة والملكية والسوق على مصراعيه، ولنا أن نتخيل ماذا سيجلب كل هذا الفتح الجديد لنظام القيم الدينية، الإنسانية والأخلاقية من اضطراب وتضييق واختلال.

- أما الانفصال الثاني في مظهر السياسة : إلى حد بدايات عصر النهضة لم تقض المسيحية نحبها بل استمرت بتعاليمها ومطلقاتها الدينية في ضمائر الناس ووجدانهم، فظلت السياسة رابطة روحية غير منفصلة عن القيم الدينية تستمد كمالها من ارتباطها بالمبدأ الأول مصدر الأشياء كلها، لا يكف الحاكم فيها عن الاعتراف بالزامية الولاء الديني لتعاليم الكنيسة والتضحية من أجل المحكومين والوطن "فأشدّ الحكام قسوة كانوا يعلنون عن إيمانهم بالمحبة والتواضع للمسيحيين"⁸ ولا يشك المحكومون بدورهم في مشروعية الحاكم الذي يقف على قمة البشر في الشرعية الإلهية والسلطة على السواء " فالفرد كان ملزما بواجب الانخراط داخل نظام للسيطرة التي أرادها الله"⁹.

وفق هذا المنظور الخاص بالمجتمع المسيحي التقليدي لم تتوجس فكرة فصل القيم الأخلاقية عن السياسة، وبقياً يشكلان بناءين متلازمين في تناغم كامل، ولكن مع بدايات تشكل الإمارات الجديدة في إيطاليا، بدأ التوجه السياسي يشهد انفصالا قيميا تدريجيا، فحكام تلك الإمارات من أمثال < سيزار بوريجيا >¹⁰ (1476. 1507) لم يحافظوا على

8 - المرجع نفسه، ص 17

9 - عبد الحق منصف، الأخلاق والسياسة كائط في مواجهة الحداثة، إفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص 245.

10 - هو ابن شقيقة البابا إسكندر السادس بوريجيا، الذي كانت مؤامراته وحياته الخاصة تزكم أنوف الشرفاء في إيطاليا والغرب الأوربي كله، وقد رشح ميكافلي للإمارة، الدوق سيزار بوريجيا سيّدا لقالنتينو لما لمس فيه من موصفات الأمير المثالي، فقد كان سيزار يستخدم من الأساليب ما يحقق أهدافه، دون وازع أخلاقي أو إنساني، فلقد اغتال أخاه، ثم اغتال زوج أخته لوكريشيا، هذا بخلاف العديد من خصومه، ويظهر أن ميكافلي وجد في سيزار مثاله المنشود بعدما أمضى معه بضعة أشهر في معسكره.(إسحاق عبيد، عصر النهضة الأوربية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2006، ص20).

ذلك الميثاق الذهبي الذي يربطهم بتعاليم التأويل الثيولوجي، ليجنبهم لعنة القديسين وسخط السماء¹¹.

كما أن الخضوع للقوة الغاشمة وتمركز الثروة في يد الأقلية وطد أركان الدولة الجديدة ذات الملكية المطلقة، فأصبحت سلطة الحاكم السياسي تعلل ذاتها بمبررات فيزيائية لا مبررات ميتافيزيقية وتميل إلى "الممارسة المستقلة أكثر من الموقف المتأمل الغالب على الوعي التاريخي"¹² وهذا بالذات ما ستسعى الحداثة السياسية عبر ثوراتها الكوبرنيكية من إقصائه "فقد بحثت عن المنطق الخاص بالسياسي في استقلاله عن مقولات الفضيلة والحكمة الأخلاقية"¹³، بحيث يتم الحكم على الظواهر السياسية¹⁴ بمقاييس سياسية خالصة لتصبح موجهات العمل السياسي ومحدداته أي إجراءات مادية تعاقدية إلا العقيدة الدينية أو أي تطلعات إنسانية أخلاقية مرتبطة بما هو غيبي فقد بدا واضحا أن هذه الإرادة السياسية المتطلعة لن تتجسد إلا من خلال الدولة العلمانية.

نتيجة لطغيان الكنيسة طيلة القرون الوسطى وفرضها للوصاية الدينية والسياسية أدرك الناس جيدا أن الممارسة السياسية بهذه الصورة سوف تمنح السلطات هيبَةً وقداسةً أكثر، وتفرض حكما مطلقا مما يكرس احتكار السلطة ومصادرة الحريات والحقوق في معظم الميادين وسدا لكل طغيان سياسي باسم الدين ورجاله، وتأسيسا لدولة القانون والحرية والتسامح الديني، أصبح لازما فصل الدين عن الدولة لتبدأ متتالية الانفصال القيمي تتحرك بصفة تصاعدية مرتبطة بجملة التحولات الاقتصادية والعلمية والاجتماعية التي عرفتتها المجتمعات الغربية، مدفوعة أكثر بالخطابات الفلسفية التي أبانت عن جرأتها العلمانية وتحمسها الشديد لبعث الدولة الحديثة وفق أسسها المحايدة والمطلقة، بعد تجريب ألوان الوصايا المسيحية وما قدمته من قيم أخلاقية ضعيفة لا تصلح لبناء الدولة القوية المنشودة، فظهر <نيكولا ميكياڤلي - Nicolas Machiavel> (1469، 1527) لينادي في سفره الصغير الأمير بضرورة

11. قافين رايلي ، الغرب والعالم تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، الجزء الثاني، المرجع نفسه، ص 17

12. عبد الحق منصف، الأخلاق والسياسة كإنط في مواجهة الحداثة، المرجع نفسه، ص 246

13. المرجع نفسه، ص 247 .

14. المرجع نفسه، ص 245

استقلال السياسة عن جميع المبادئ الأخلاقية التقليدية، وبتحريرها من هيمنة الدين ناصحا الحكام بأن لا يخلجوا في اختيار أي أسلوب مهما كان متدنيا لتحقيق مصالح الدولة، فالحاكم الناجح هو من يلجأ إلى الأساليب الإنسانية والحيوانية حسب الظروف والحاجات، وأنه لا ينبغي أن نحسب أي حساب للأخلاق الجارية إذا ما تعرض الوطن للخطر سواء كانت هذه الأخطار داخلية كالخيانة أو التمرد، أو أخطاراً خارجية كأطماع الدول المجاورة.

الواقع أن <ميكياڤلي> لم يكن يعترف بأي قيم أخلاقية في مسائل السياسة، ما عدا قواعد اللعبة السياسية ذاتها، يقول المسيري: "ينبغي أن نفهم أن ميكياڤلي في دعوته المحايدة لم يدع إلى فصل الساسة عن الدين فقط، وإنما بفصلها عن كل المطلقات، وعن أي مرجعية متجاوزة ويحولها هي إلى المرجعية المادية النهائية"¹⁵، فنسق ميكياڤلي الجديد هو جعل "أخلاق الدولة أخلاقيات السلطة التي تسمح بأي شيء وكل شيء"¹⁶.

ثم جاء <توماس هوبز- Hobbes> (1588، 1679) بدوره مبشرا بمطلقية الدولة التنين الآلة المتكاملة القائمة على القوة، معارضا "الفكرة الدينية التي سادت العصور الوسطى والتي ترى أن الملك يحكم بأمر من الله وأنه المسؤول أمامه وحده، وليس أمام أحد من رعاياه"¹⁷، مما يجعل النظريات الأخلاقية عديمة المعنى فهي لم تعد تعكس الطريقة التي يتصرف بها الناس فالاضطراب الاجتماعي وازدياد العنف السياسي وحالة الصراع الدائم التي لا تنتهي لم تترك مكانا للقيم الأخلاقية والوصايا الدينية في ساحتها، فقد "أصبح الشرف هو أي شيء نملكه أو أي شيء نفعله أو أي صفة نتصف بها، والسيطرة والانتصار أمران شريفان لأننا نحصل عليهما بالقوة، والناس قادرون على تجاهل المسائل العاطفية الانفعالية والقيمة هي الحصول على أعلى سعر، ومن يستطيع البيع بأعلى الأسعار فهو خير الناس"¹⁸.

15 - عبد الوهاب المسري ، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، المرجع نفسه، ص 85

16 - رايلي كاقين، الغرب والعالم من خلال موضوعات، الجزء الثاني، المرجع نفسه، ص 19.

17 - إمام عبد الفتاح إمام، الأخلاق والسياسة دراسة في فلسفة الحكم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002،

ص 266

18 - رايلي كاقين، الغرب والعالم من خلال موضوعات، الجزء الثاني، المرجع نفسه، ص 37/36 .

هذه الصورة التي تصورها <هوبز> مبكرا هي ما يمثل حقيقة البشر إذا ويعبر عن طبيعتهم المادية المتحركة وأنانيتهم الفطرية ورغبتهم الجامحة في البقاء في ظل الإحساس بالخطر الدائم وعدم الأمان، مما يستوجب حتمية التعاقد الاجتماعي ويفرض مطلقة الدولة الجبارة، والمنوطة هذه المرة بمهمة "المحافظة على حقوق الناس ومصالحهم، لا نشر الفضائل المختلفة وإرغامهم على السلوك القويم"¹⁹، ومعنى هذا أن مجال الأخلاق هو سلوك الفرد، أما مجال السياسة هو النهوض بالدولة وتنظيم المجتمع وحماية المصالح، إذ لا ينبغي الخلط بينهما بل فصلهما فصلا تاما لتقوم السياسة بمهمتها على أكمل وجه بكل حياد وموضوعية.

على هذا النحو لم يعد التفكير في الفلسفة السياسية داخل الدولة العلمانية الجديدة هو مسألة التوفيق بين التعاليم الدينية والممارسة السياسية، بل أصبحت الدولة توجهاً علمانياً يهتم بتدبير شؤون الدولة ورعاية المصالح العامة، أما مهمة هداية الناس ووعظهم فتلك مسألة شخصية تخص الفرد ذاته وتتعلق بضميره، من هنا بدأ التأكيد على "ضرورة خضوع الدين لأشراف الدولة لا العكس، وهكذا اختفت ازدواجية التي كانت قائمة في العصور الوسطى بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية، أو سيطرة الدولة بما في ذلك السلوك الخارجي للمتدين"²⁰.

ينبغي أن نلاحظ هنا كيف أصبحت الدولة مع <هوبز> المطلق أو المرجعية النهائية - التنين الحتمي "الذي يبتلع في جوفه كل الأفراد الذين تمعى شخصياتهم وإرادتهم أمام شخصيتها وإرادتها، فهي كل شيء، لا يكون فيها حرية للرأي أو إملاء للضمير"، وتحولت مع <هيجل - Hegel> (1770، 1831) إلى ذروتها في التقديس والمطلقية، " فهي الغرض الذي يقصد إليه الإنسان وهي النظام الأخلاقي، وهي الغاية النهائية في السلوك الأخلاقي والاجتماعي، بل هي إله يسير في العالم"²¹.

بهذا التوجه انقلبت المعايير، فبعدما كانت السياسة تسترشد بموجهات السلطة الدينية أصبحت الدولة المتألهة هي من توجه السلوك الديني والأخلاقي للأفراد، فحينما

19 - إمام عبد الفتاح إمام، الأخلاق والسياسة دراسة في فلسفة الحكم، المرجع نفسه، ص 273

20 - المرجع نفسه، ص 279 .

21 - عبد الوهاب المسري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، المرجع نفسه، ص 77.

يسلك الإنسان كعنصر أخلاقي، فإن اختياراته ينبغي أن تتفق واختيارات الآخرين، والحرية الأخلاقية تكمن في الاختيار الأخلاقي الذي يعبر عن الإرادة العامة.

وباسم الروح العامة والإرادة الكلية والدولة المطلقة أصبحت مقاييس السيادة هي الحرب والقوة لا القيم الدينية والتوجهات الأخلاقية، فالدولة حسب هيجل تستمد عظمتها وقداستها لا بسبب صفاتها الأخلاقية الكامنة فيها وإنما بسبب قوتها، لذلك في مجال العلاقات الدولية ينبغي أن نعطي من صورة القوة لا قيمة السلام الدائم التي قال بها كانط، ومع "تصاعد معدلات العلمنة وتعميق مطلقة الدولة وتزايد هيمنتها كمرجعية نهائية مادية (...). تصعد الدولة هجومها المباشر على الدين الذي كان يثبت في الفرد قيما أخلاقية وتزيد في رقعة الحياة العامة التابعة لها وتقلص من رقعة الحياة الدينية وتجعلها مسألة خاصة، ويستمر هذا التكتيك لدرجة (...). لم يعد من المهم فيها التساؤل عن عقيدة الإنسان وانتمائه الديني ولا حتى سلوكه الشخصي خلقيا كان أم منافيا للأخلاق، إذ أصبح المهم فقط هو مدى نفعه للدولة وولائه لها"²².

- وأما المنعطف الثالث في صورة الفن: كان الناس كما يقول: البروفسور <كافين رايلي - kavveen rayly> في كتابه الغرب والعالم "لمائة عام خلت على يقين من كل شيء، فتصوراتهم عن الله والتقدم والحقيقة والجمال والبواغث الإنسانية والأخلاقيات والجنس والزواج والحضارة والحرب والاقتصاد والطبيعة، كانت جميعها واضحة يمكن صياغتها في عبارات محددة وغالبا مطلقة أما اليوم فلم يعد هذا اليقين ممكنا"²³.

ينبغي أن نفهم أنه مع غياب اليقين سوف يتفكك العمل الفني لا محال، لأنه لن يجد الأرضية الصلبة التي يركز عليها والمعايير الملزمة التي يتحدد بها فيختفي الفن الأصيل بوصفه ظاهرة نوعية تحترم القيم التي حددها التراث ليظهر الفن الأجوف الذي يتحرك بلا اتجاه أو هدف، الفن الذي يسمح بموت الفنان ذاته، ومن "هنا يكثر الحديث عن الأدب للأدب والشعر للشعر والمسرح للمسرح والموسيقى للموسيقى، وكأن الفن نشاط لا علاقة له بالقيم الأخلاقية والإنسانية"²⁴، والفنون الطليعية ترفض التحديد

22 - المرجع نفسه ص 80 .

23 | رايلي كاقين، الغرب والعالم من خلال موضوعات، الجزء الثاني، المرجع نفسه، ص 146.

24 - المرجع نفسه، ص 348 .

الذي تفرضه قيم معينة أو مرجعيات نهائية وتقدم نفسها "باعتبارها نماذج معرفية مميزة للواقع، بوصفها لحظات لقلب البنية المنظمة روتوبيا للفرد والمجتمع، أو بوصفها أدوات تمرد اجتماعي وسياسي حقيقي لم تعد تقبل النظر إليها حصرا بمثابة موقع تجربة، لا نظرية ولا عملية"²⁵، فيظهر الفكر البنيوي الذي يؤكد أهمية البنية على حساب المؤلف والقارئ، ثم يظهر الفكر التفكيكي الذي يعلن سقوط المعيارية ويؤكد أن كل الأمور متساوية ومتداخلة²⁶، وتظهر التعبيرية التجريبية والحركة الانطباعية والرمزية قبلهما ليعلنوا بداية الهجوم على اللغة من خلال التخلص من جزئيات اللغة وتجاوز أسلوب السرد القصصي التقليدي، ويزداد الاهتمام أكثر بالعبث والهوس ومسرح العنف، وكذلك الأشكال الفنية الأخرى مثل تيار الوعي والفلش باك، والحركة المستقبلية في إيطاليا وروسيا، والتكعبية لينادوا بمقولة الفن المحايد أو الفن المستقل أو الفن الحر والتي تصبح حقا مشروعا في نظر البعض تتم المطالبة به في بيان للمستقبلين في روسيا، ينادي بضرورة إعطاء الحق للشعراء لرفد الناس بمفردات مبتكرة وملفقة²⁷، لتتحول الكلمة إلى مقاطع صوتية لا معنى لها سوى الهسترية والتهريج أو التوهج والإيقاع في أحسن الأحوال من قبيل "سي سي سي سي سي وشاعر أخريقول: ستزن ستزن ستزن وآخر يقول: في عبارات أقرب إلى الدندنة: دربل، إشكل، إشبكر، سكم، مي سوبر، رل ينر"²⁸، وكأن الأسس والقواعد التي أصبحت توجه الفن الحديث هي اللاذوق واللاعقل واللايقين.

فتطغى الضدية على الفن الحداثي، لتصبح من أهم خصائصه، فيقال الفن المضاد Anti Art والرواية المضادة Anti Novel والحضارة المضادة Anti Culture أي كل ما هو معادٍ للفن الحقيقي والرواية الأصيلة والحضارة الإنسانية في صورة الغائب فيها إنسانية الإنسان، بعد سقوط المقدس والمثالي والأخلاقي والعاطفي، فقد لاحظ < لوكاتش > ما سماه سقوط الذات المتكاملة وسقوط الشخصية في الأدب وتفككها في الفن

25 - 25. قاتيمو جيان، نهاية الحداثة الفلسفات العدمية والتفسيرية في ثقافة ما بعد الحداثة، ترجمة/

فاطمة الجيوشي، (د، ط)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1998، ص 61.

26 - عبد الوهاب المسري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، المرجع نفسه، ص 148

27 - عدنان رضا النحوي، تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة

الأولى، 1992، ص 103

28 - المرجع نفسه، ص 101.

التعبيري والتكعيبي واختفاءها تماما في الفنون التجريدية"²⁹ ، هكذا تتساقط الدوال أو تنعدم الواحدة تلو الأخرى في لعبة لا تخضع إلا لقوانينها الذاتية .

ويمكننا أن نلاحظ مدى هذا الانفصال والتغير القيمي الحاصل في الفن الحديث إذا ما تأملنا قليلا اللوحات التي عرضت في معرض أرموري الأمريكي عام 1913، وهو من أهم معارض القرن العشرين، فقد "بدت اللوحات وكأنها جاءت من كوكب آخر منافية تماما للمبادئ والقيم عاكسة لونا أكثر تطرفا، ولكن الأهم من ذلك أنها قبلت بدون الصدمة والفضيحة التي أثارت في صالون المرفوضين عام 1863، فما عرض من طرف < هنري ماتيس - Henri matisse > و <مارسيل ديشان - Marcel Duchamp>، كان خروجاً عن قواعد التصوير التقليدي بمعنى الكلمة، فلوحة <ماتيس> العارية الزرقاء مثلا تكاد تكون عدونا على ما ألفه المشاهد من حيث وضع الموديل الأزرق والإطار الذي تظهر فيه، ولوحة < ديشان> عارية تهبط على درج لا تصور درجا ولا عارية، بل تكاد تكون رسوما مغلوبة ومبهمة لأجزاء وأعضاء متداخلة"³⁰. لدرجة يصبح فيها التميز بين عالم الفن وعالم الأشياء أمرا مستحيلا، فالمنظور المسطح والخطوط المتداخلة وبقع اللون والأشكال التكعيبية تميل إلى "زخرفة هندسية أو إلى ما يشبه اللعبة التي لا تعرف حدودا متحررة تماما من أي قيود أو معايير، وليس لها أي مرجعية أخلاقية أو إنسانية"³¹ وهنا يحدث الشرخ عندما تغيب المرجعيات الضابطة والقيم الموجهة بقصد أو دون قصد فلا تعرف البشرية ماذا تريد وماذا لا تريد، ما ينبغي فعله وما يجب تركه وضع تنقلب فيه الموازين وتسقط معه فكرة الخير والجمال والحق، الأفضل والمرغوب فيه فلا يختلف الفن الهابط عن الفن الرفيع، والنتيجة هي غياب القيم الدينية والأخلاقية وتميز عصر الحداثة بتغليب قيم العقل على الإيمان والفلسفة على اللاهوت وسلطان العلم على الكنيسة، فاختفى الدين وأصبح مسألة شخصية ليس إلا.

29 . عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، طبعة

الأولى، 2006، ص 147 .

30 - المرجع نفسه، ص 273.

31 - المرجع نفسه، ص 254.